موسم تداعي القيم

رواية

حوار المسن مع النفوس المتعبة

تأليف: محمد المشهداني

(رواية حوارية توعوية)

إن لـم تكـن مسـتعداً بـأن تطبـق مـا يقولـه العجـوز فـلا تقـرأ هـذه الروايـة، فهـي ليسـت رواية عابرة.

الإهداء

إلى كل حالم مجد، إلى كل من ناضل وقاتل في سبيل حلمه، وإلى أولئك الذين لن يتغيروا بشوائب هذا الزمن، إلى كل من لن تتداعى قيمه في موسم تداعي القيم.

الفهرس

1. فقدان الهدف والمعنى

2. الإدمان الرقمي

3. العلاقات

4. الإهمال الأخلاقي

5. حواجز بناء الطفل

6. تأملات الرجل المسن

7. الصدق مع النفس

8. التنمر

9. هل نحن سبب التداعي أم الضحية؟

10. لماذا لا نتغير رغم إدراكنا؟

11. الوصية لهذا الجيل

الشكر

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من ساعدني في هذه الرواية المتواضعة من تدريسيين وطلاب، مع كامل التقدير.

المقدمة

في هذا الكون المتسارع، والأيام التي تمضي كالبرق، يرى الإنسان نفسه مقيداً بشوائب هذا الزمن المتسارع، فيجد نفسه أحياناً فاقداً لشغفه وطموحاته، وتارة فاقداً للإرادة. فلا بد للإنسان من تنظيم نفسه والعودة إلى مسار خالٍ من السلبيات. وجاءت لي فكرة هذا الكتاب مما مررنا به من أزمات ومشاكل؛ إن هذا الكتاب ليس مجرد كلمات رتبتها لتكون جميلة فحسب، بل هو محاولة لترميم وإصلاح النفوس المحطمة عبر الحوار، فالحوار هو سلاح الإنسان الذي يؤمن نفسه به بعد كل انكسار وهزيمة. يجب على كل منكسر أن ينهض بفكر جديد وقلب من حديد ليرميم نفسه وعقله.

1- فقدان الهدف والمعنى

في جوٍ ممطر، يتوجه الشاب أحمد بعد عودته من مقابلة عمل فاشلة، بعدما استنزفت كل جهوده في القبول، وها هو حاله الآن مملوء بالفراغ؛ فراغ فقدان المعنى والهدف. يجر خطاه نحو موقف الحافلة لينتظر في المحطة قدوم الحافلة يائساً. جلس واضعاً يده على خديه يفكر بما سيقوله لأولاده وزوجته؛ رُفضتُ مرة أخرى مثل كل المرات التي سبقتها، كأن هنالك حكماً إلهياً حتم عليه الفشل. أخذ يوجه نظره إلى قطرات المطر التي ترتطم بالرصيف، وملامح الخيبة والفشل تملأ عينيه. وكان جالساً إلى جانبه رجلٌ مسن

يظهـر علـى وجهـه الوقـار، واضـعاً يديـه الهـرمتين علـى عكـازه الخشـبي، موجهـاً بنظره إلى أحمد وسائلاً عن حاله...

المسن: كيف حالك يا ولدي؟

أحمـد: (ابتسـم وقـال) بخيـر، (ثـم عـاد ينظـر إلى الفراغ).

المسن: هل أنت متأكد؟ أنا لا أشعر بذلك.

أحمـد: مجـرد مشـكلة بسـيطة... لا شـيء يدعو للاهتمام.

المسن: ولماذا لا أهتم يا بني؟ الناس للناس يا عزيزي. اسمع يا بني، لقد واجهت الكثير من الشباب المنكسرين مثلك، ولربما حالهم أسوأ من حالك، وكانت أسبابهم لا تستحق ذرف دمعة واحدة من أجلها، فكل أحزانهم هي أحزان وهمية أعطوها هم الأهمية حتى تسللت إلى نفوسهم.

أحمد: (ضاحكاً باستهزاء) الأمر ليس كما تظن أيها العجوز، لقد تخرجت من الجامعة منذ أربع سنوات وها أنا أمامك دون أي وظيفة، أشعر بأن الحياة لا تريد الابتسام

لـي. أنـا أمامـك الآن قـد رُفضـت مجـدداً فـي مقـابلتي للعمـل، لا أدري كيـف سـأخبر زوجتـي، كيـف سـأخبر أولادي الـذين ينتظـرون عـودتي، كيـف سأصـارحهم بـأن أباكم قد فشل مجدداً؟

المسـن: يـا بنـي، إن هـذه المشـكلة الصـغيرة لا تجعـل منـك إنسـاناً فاشـلاً. يـا بنـي، إن الطبيعـة البشـرية لا يمكـن أن تتقـدم فـي سـعيها إلا بالفشـل والمحاولـة والسـقوط. تأكـد يـا بنـي أنـك عنـد كـل فشـل سـتتطور لترتقـي بأفكـارك وعقلـك. سـقوط الإنسـان يـا بنـي وتعثـره لا يسـمى فشـلاً، بـل الفشـل يـا بنـي هـو مـن ييـأس

مـــن التجربـــة والمحاولـــة، لـــيس عليـــك الاستسلام واليأس بسبب رفض بسيط.

أحمــد: (بخيبــة) أتظــن بــأني لــم أحــاول؟ حاولـت وحاولـت ألـف مـرة، وفـي كـل مـرة نفـس النتيجــة: الفشــل. تبخــرت رغبتــي فــي المحاولــة، أنــا لا أجـد أي معنــى لحيــاتي، أنــا أركـض وراء دائـرة مـن الفشـل والهبـوط، لقـد جربت حظي ولا أرى بأني أصلح لشيء.

سـكت المسـن لحظــة، ثـم وجــه نظــره نحــو أحمد قائلاً:

المسن: أنصت إليّ جيداً يا بني، أتظن بأن الفشل شيء سيء أو نهاية؟ أنت مخطئ يا بني، إن الفشل يا بني هو التخلي عن أهدافك، عن طموحك، عن شغفك بالحياة. يا بني، إن الفشل هو سلسلة النجاح، الانكسار ليس في الفشل، بل في الاستسلام للفشل. إذا توقفت الآن فما فائدة محاولاتك وتعثراتك؟ يا بني، في استسلامك هذا أنت تقتل كل ما بنيته، يا بني ستعيش لتسأل نفسك فيما بقي من عمرك كل يوم عند كل موقف: ماذا لو لم أتوقف؟ ماذا لو لم أستسلم؟ سيستمر هذا الحال؟ بماذا ستجيب نفسك في ذلك الوقت يا بني؟ يجب أن تكون مرابطاً لحلمك ملازماً له، كل صعود يلازمه التعثر فلا تتخلَّ عن حلمك

لتعثرك، لا تجعل من نفسك فريسة سهلة لليأس، اجعل من نفسك قوة كادحة لا تكل ولا تمل.

سكت أحمد للحظة قائلاً:

ماذا لو فشلت مجدداً؟ عندها ستكون محاولتي عبئاً يزداد على أعبائي، تعبت من كل هذا، أتمنى أن أشعر بذلك الشعور؛ شعور بأني لا أنتظر شيئاً، فقد تعبت يا جدي، تعبت من كل شيء.

المسن: أظن أنك تعني إحساس الفشل؟ يا بني، إن كل الناجحين الذين قابلتهم في حياتك ليسوا سوى مخزون من المحاولات. نحن لا نولد ناجحين، نحن من نصنع نجاحاتنا، نحن من نضيف قيمة لوجودنا في هذا الكون. هؤلاء الناجحين لن يكونوا أناساً مختلفين، لكنهم لم يستسلموا لليأس، يملكون إصراراً يجعلهم ينهضون وراء كل فشل ليكونوا أقوى وأصلب من السابق، وكل ذلك في سبيل أحلامهم؛ فالإنسان جوهر إذا دخله اليأس تصدأ.

أحمد: لا أعرف أيها العجوز، لقد فعلت كل شيء والنتيجة نفسها، أعتقد أني أعيش في دائرة عبثية لا نهاية لها، أعتقد أنني لن أكون من هؤلاء الناس الناجحين الذين تحدثت عنهم، أنا فاشل وعليّ أن أتقبل هذه

الحقيقة بكل ما تحمله من الأسى، فهو واقعي الذي لا أستطيع الهروب منه.

المسن: (مبتسماً) أخبرني الآن يا بني، برأيك ما هو العبث؟ التوقف عن المحاولة والاستسلام، أم المحاولة وحل أسباب الفشل؟ يا بني، عندما اختبرتك بالمحاولة أجبتني بـ "ماذا لو فشلت؟" وأنا سأقول لك: ماذا لو نجحت؟ حينها سيكون العبث هو خوفك من المحاولة وليس المحاولة نفسها... الفشل لا يوجد إلا إذا أوجدته في نفسك، أنت لست فاشلاً يا بني، إن ساعي النجاح لا يمكن أن يُلقب فاشلاً، أنت تخدع نفسك لترضيها يا بني، سيأتي يوم وستدرك حينها أهمية المحاولة...

أحمـد: هـل تقصـد أنـي مـن أعطيـت للفشـل معناه ومكانه في نفسي؟

المسـن: بـدأت تـدرك الأمـر يـا بنـي. اسـتمع، أنـت لسـت آلـة، أنـت إنسـان، والإنسـان يسـقط ليـتعلم، لـن تـنجح مـن أول مـرة، عليـك أن تحـاول وتحـاول حتـى تصـل إلـى هـدفك. كـل إنسـان فـي هـذه الـدنيا يتعـرض لهـذه العثـرات ليـتعلم منهـا لا ليستسـلم عـن المحاولـة، أنـا واثق مـن أنـك سـتنجح يومـاً مـا لأن الفشـل هـو أول خطـوات النجـاح. يـا بنـي، أنـت لـن تصـبح فاشـلاً إن تعثـرت، بـل تصـبح فاشـلاً إذا توقفـت عـن المحاولـة... أنـا واثـق مـن أنـك ستنجح يوماً ما.

أحمد: لقد سئمت الانتظار، متى هذا اليوم؟

المسن: في اليوم الذي تقرر فيه أنت عدم الاستسلام والمحاولة، في اليوم الذي تدرك فيه قيمة المحاولة ودروس الفشل.

أحمد: (بنظرة مليئة بالأمل) شكراً أيها العجوز، إذا نجحت يوماً ما سيكون هذا اللقاء محور نجاحي، أعدك بأنني سأحاول وسأنهض بعد كل رفض بعزم أكبر وشغف أكثر، فقد كنت في أمس الحاجة لهذا الكلام لاستعادة شغف المحاولة الذي كدت أفقده لوهلة من ضعف الاستسلام...

المســـن: (مبتســـماً ومتـــأملاً قـــدوم الحافلـــة) أعتقـد أنـــي الآن أرى شخصـــاً ناجحـــاً أمـــامي، فالفرص الذهبية يكتسبها الشغوفون...

2- الإدمان الرقمي

انتهـى النقـاش بـين أحمـد والمسـن بعـد وصـول الحافلـة إلـى المحطـة. قـام المسـن مـن كرسـيه فـي موقـف الحافلـة يجـر خطـاه بصـعوبة لكبـر سـنه متوجهـاً نحـو الحافلـة. دخـل الحافلـة فوجـدها ممتلئـة، فأخـذ يجـر خطـاه متوجهـاً نحـو المقاعـد الأخيـرة مـن الحافلـة ليطلـب مـن فتـاة كانـت لربمـا مشـغولة بهاتفهـا المحمـول

بــأن تفســح المجــال لهــذا المســن ليتســنى لــه الجلوس.

المســن: كيــف حالــك يــا ابنتــي؟ أيمكنــك فســح المجــال قلــيلاً لكــي أجلــس بجانبــك فالحافلــةُ ممتلئة؟

البنـــت: (مشـــغولة بهاتفهـــا، لا تعـــي ولا تكترث لما حولها).

المسن: هل سمعتني يا ابنتي؟

البنــت: عفــواً، هــل حــدثتني؟ كنــت مشــغولة بهاتفي لم أنتبه؟

المسـن: (مبتسـماً) نعـم، لقـد طلبـت منـكِ التنحـي جانبـاً ليتسـنى لـي الجلـوس بجانبـك فالحافلة ممتلئة كما ترين.

البنـت: حسـناً، (ودون أن ترفـع عينيهـا عـن هاتفهـا تنحـت جانبـاً وفسـحت المجـال لجلـوس الرجل المسن).

جلـس الرجـل المسـن بصـعوبة واضـعاً عكـازه الخشـبي بـين قدميـه قـائلاً فـي نفسـه: سـتكون رحلة شاقة إلى موقع منزله...

تحركـت الحافلـة، وبعـد سـاعة مـن الصـمت، لازالـت الفتـاة تتصـفح فـي هاتفهـا المحمـول مـن موقـع إلـى موقـع فـي عالمهـا الرقمـي،

وكأنها في عالم موازٍ لا تشعر بمن حولها، لا تشعر إلا بتلك الشاشة الصغيرة. نظر إليها المسن مستغرباً وهو يمسك عكازه، سائلاً نفسه: ما الذي يدفع هذه الفتاة بالتخلي عن كل ما حولها؟ ما الذي تقدمه هذه الشاشة الصغيرة لها ليستحق أن تهدر به أوقات عمرها؟ ماذا يفعل لها لإعطائه كل هذا الوقت؟

المسن متحدثاً.....

المسن: كيف حالك يا ابنتي؟

البنت: (دون أن تنظر إلى المسن) بخير.

المسن: ما هو اسمك يا عزيزتي؟

البنت: فاطمة..

المسن: تشرفت بمعرفتك يا ابنتي فاطمة. (مخرجاً هاتفه القديم من جيبه ناظراً إلى الساعة).

فاطمة: (بسخرية ضاحكة) أما زلت تستخدم هذا الهاتف الرديء؟ في أي زمن نحن؟!

المسن: نعم، إنه يقضي احتياجاتي وهو كافٍ.

فاطمة: كيف يمكنك التحمل دون إنترنت؟

المسن: وهل تظنين أن الإنترنت هو شيء لا بد منه؟

فاطمة: بالتأكيد، فهو الذي يربطنا بهذا العالم ويفصلنا عن هذا الواقع المرير قليلاً.

المسن: (مبتسماً وهو يضع هاتفه في جيبه) أتعتقدين يا ابنتي أن هذا الشيء هو الذي يربطنا بهذا العالم؟ مجرد آلة؟ من وجهة نظري أن الذي يربطنا بهذا العالم هو واقعنا، هو ما نواجه من صعوبات، ما نواجه من أزمات. إن معرفة هذا العالم يا

ابنتي تكون بالاختلاط به لا من وراء شاشة صغيرة. إن الرابط الذي يربطنا بهذا العالم أعمق من أن يكون مجرد شاشة صغيرة، بل هي مشاعرنا نحو الناس من حولنا. انظري إلى المتواجدين في الحافلة، كل منهم يحدث أخته أو لربما أباه أو زوجته عن يومه واهتماماته، بينما أنتِ الآن وحيدة تنظرين إلى شاشة صغيرة دون مشاعر.

فاطمة: من الوحيدة؟ أنا؟ أنت مخطئ أيها العجوز، لدي آلاف من الأصدقاء من جميع الأماكن، هذه الشاشة الصغيرة كما نسميها هي التي تكون لنا العلاقات، من هذه الشاشة نتعلم الحضارات، عكس هذه الخردة التي تحملها في جيبك. هاتفي هذا

هـو الحلقـة التـي تربطنـي بهـذا العـالم ولـيس كما تعتبره أنت مجرد آلة.

المسـن: أخبرينـي الآن، هـل سـبق لـكِ أن التقيـتِ أحـداً مـن هـؤلاء الأصـدقاء أم أنهـم وهميـون؟ ربمـا تعـرفين الكثيـر مـن النـاس حـول العـالم بهاتفـك هـذا، لكـن هـل تعـرفين أوضـاع جاراتـك؟ هـل يمكنـكِ إخبـاري عـن الأثـر الـذي تركـه الهـاتف بـكِ سـوى أثـر العزلة ؟

فاطمـة: (بتـردد) قـد تكـون محقـاً بعـض الشـيء، لكـن زمـن الانغـلاق انتهـى، نحـن نواكـب التطـور وننفـتح علـى هـذا العـالم فيمـا

تسـميه أنـت شاشـة صـغيرة. لا أسـتغرب أنـك لـن تفهـم هـذا، فالجيـل الـذي ولـدتَ بـه مختلـفُ عن جيلي المتطور.

المسـن: الـذي تسـمينه أنـتِ عزلـة، أنـا أسـميه سـكينة. أنـتِ تسـتخدمين هاتفـكِ للهـروب مـن الواقــع، أمــا أنــا فــأعيش هــذا الواقــع. هــل يمكنـكِ إخبـاري متـى آخـر مـرة جلسـتِ فيهـا دون هذه الشاشة الصغيرة؟

فاطمة: بصراحة، لا أذكر.

المســن: يــا ابنتــي، إن عــيش الواقــع لــيس عزلــة. انظــري إلــى نفســك الآن وحاســبيها:

هـل أنـتِ مـن تملكـين هـذا الهـاتف أم الهـاتف من يملككِ؟

فاطمــة: لأكــن صــريحة، فــي الواقــع أنــت محـق فـي هـذا، جعلـتُ هـذه الآلـة هـي التـي تسيطر عليّ بعض الشيء.

المســن: مــن الجيــد اســتيعابكِ لهــذا الأمــر، وتـذكري دائمـاً أن الحيـاة أكبـر مـن أن تكـون مجـرد شاشـة، بـل هـي مـا تصـنعينه مـن أثـر للنــاس مــن حولــكِ. الحيــاة يــا ابنتــي العزيــزة ليســت وراء الشاشــات بــل هــي مــا تعيشــينه، وعنـد كـل موقـف سـتدركين يـا ابنتـي أهميـة مواجهـة الواقـع فـنحن محكومـون بهـذا الواقـع.

مواجهة الواقع يا ابنتي ومحاولات تحسينه أفضل من هروبنا. استودعتكِ الله يا ابنتي فاطمة...

فاطمة: شكراً لك يا جدي، لقد فقدت واقعية الحياة وواقعها بسبب شاشة صغيرة، ربما قتلت كل لحظة جميلة مع عائلتي ومع أصدقائي بسبب آلة. لقد أدركت بأنني لا أملك هذا الهاتف يا جدي، بل هو من ملكني وملك حياتي. (وجهت نظرها لأب يحتضن ابنته قائلة في نفسها): أين كنت؟ ماذا تساوي هذه الشاشة الصغيرة لأفقد كل هذه اللحظات؟ إن الواقع ولو كان مريراً فالهرب منه لم يزدني إلا بؤساً وانعزالاً،

مـن اليـوم سـأكون فاطمـة الواقعيـة والأصـدقاء الواقعيين....

3- العلاقات

نــادى المســن صــاحب الحافلــة: "أنزلنــي هنــا لقـد وصـلت إلـى بيتـي"، فأخـذ عكـازه وتوجـه بـبطء لينـزل مـن الحافلـة بعـد طريـقٍ طويـل وشــاق. نــزل مــن الحافلــة وتوجــه نحــو بيتــه الريفــي المتواضــع بخطــواتٍ بطيئــة حــاملاً مفتــاح بيتــه بيــده. فــتح بــاب المنــزل وأكمــل مشـيه متوجهـاً إلـى المطـبخ ليعـد لنفسـه كوبـاً مــن الشــاي بعــد رحلــة طويلــة، ويجلــس فــي

حديقـةِ بيتــه الأماميــة المزهـرة متـأملاً زقزقـةَ العصـــافير مـــن حولـــه ومتـــأملاً جمالهـــا المطـرب. خـرج مـن بيتـهِ يحمـل الشـاي بيـده متوجهـاً إلـى كرسـيه الخشـبي وسـط الحديقـة، وإلــى جانبــه كرســي زوجتــه المتوفـاة، نــاظراً إليــه ليســتعيد ذكريــات جلوســها إلــى جانبــه ووقوفهـا معـه فـي كـل لحظـة قـائلاً: رحمـك الله يا زوجتي لقد كنتِ خير زوجة...

فجــأة، انطلــق صــوت عــالٍ مــن بيــت جــار المســن: **"**حســناً، لقــد ســئمت منــكِ ومــن تصـرفاتكِ، سـأنهي كـل شـيء اليـوم**!"**، وخـرج من بيتهِ مغلقاً الباب وراءه بقوة...

المسن: كيف حالك يا جاري العزيز؟

الجـــار: بخيـــر، لـــولا زواجـــي مـــن تلـــك الشمطاء!

المسن: وأين ذاهبُ أنتَ الآن؟

الجـار: إلـى المحكمـة، لأوقـع أوراق طلاقـي وأتخلص من هذه المرأة العنيدة.

المسـن: حسـناً، أجـل هـذا لاحقـاً، أمـا الآن فأنـا اشـتقت لـك يـا جـاري العزيـز، مـا رأيـك بقبـول دعوتي بشرب الشاي؟

الجـار: (بتـردد) ... حسـناً، لكـن أرجـو أن لا يطول الأمر فأنا على عجلة من أمري.

توجه الجار نحو المسن وجلس إلى جانبه.

المسـن: تفضـل الشـاي يـا جـاري العزيـز، لكن انتبه إنه حار.

الجار: شكراً لك أيها العجوز الطيب.

المسـن: (موجهـاً نظـره نحـو جـاره) أخبرنـي يـا بنـي، مـا هـي المشـكلة التـي دفعتـك للتفكيـر بهذا الطلاق؟

الجـار: بصـراحةٍ يـا جـاري، لقـد تزوجـت هـذه الشـمطاء وكانـت أجمـل مـا يكـون مـن الـتفهم والعاطفـة، أو بـالأحرى، لقـد ظننـت هذا حتـى كشـفتها لـي الأيـام، كشـفت لـي وجهـاً متشائماً من العناد والنكد الذي لا يتوقف.

المسـن: أتعلـم يـا بنـي، لقـد احتـرق إصـبعي عنـدما كنـت أعـد الشـاي، مـا رأيـك أن تقطعـهُ لي؟

الجـار: (ضـاحكاً) هـل خرفـت أيهـا العجـوز؟ يكفي ان تقوم بمعالجته!

المسن: (مبتسماً) حسناً يا بني، أنت محق فيما تقوله، الأمر لا يستحق أن أخسر إصبعي بسبب جرح بسيط، لكن؟ لم لا تقوم أنت بمعالجةِ زوجتك بدلاً من قطعها؟

الجار: (بنبرة مترددة) لكن هذا الأمر يختلف عن إصبعك، لقد نفد الكلام وأنا أحاول أن أجعلها تعود كما في السابق ولا نتيجة تُرجى، تغيرت عما كانت عليه.

المسن: استمع إليّ يا ولدي، ألم تكن تلك التي تسميها شمطاء ملاكاً كما أخبرتني؟ ألم تسأل نفسك لماذا اختلف هذا الأمر؟ لماذا تغيرت؟ بل هل سألت نفسك هل تغيرت

أنــت أم هــي التــي تغيــرت؟ هــل أنــت الآن تعطيهـا نفـس الحـب الـذي أعطيتـه إياهـا فـي بدايـة زواجـك؟ أخبرنـي بصـراحة، متـى آخـر مرة مدحتها فيها؟

الجـــار: (موجهـــاً نظـــره نحـــو بيتـــه) .. بصراحة .. لا أعرف.

المســـن: يـــا بنـــي، إن هـــذه الحيـــاة مليئـــة بالضـغوطات، الحـب والتعـايش يـا ولـدي لـيس ســـهلاً وكـــذلك بنـــاء الأســـرة، أنـــت تمـــر بضـغوطات كبيـرة وهـي فـي نفـس حالتـك، لا تظــن أن أعبــاء البيــت والأولاد قليلــة. مــن

الغباء يا بني أن تفكر بهذه السلبية.. بدلاً من قطع علاقتك قم بترميمها وإصلاحها. لا شيء أسهل من قول كلمة "أحبكِ"، لكن الصعب هو تطبيق هذه الكلمة لتجعل منها أسلوباً لبناء علاقاتك. أتعرف؟ لقد كنت متزوجاً وأعرف أعباء الزواج يا جاري العزيز، لكن النكد الذي تتضجر منه الآن أنا أتمناه يا جاري؛ إن الأسرة هي أساس حياتنا، فكيف برجل عاقل أن يهدم أساسه ويشتت أولاده؟

صمت الجار طويلاً وهو ينظر إلى باب بيته. فجأة فُتح الباب ليخرج منه طفل صغير راكضاً نحو أبيه، وعلى وجهه

ابتسامة عريضة وتملأ عينيه الصغيرتين المحبة، وهو ينادي: "أبي.. أبي..".

المسن: (بنظرة عطف إلى جاره) أخبرني الآن، لو قامت أمك بمعاندة أبيك، هل ستفضل أن يطلقها أم أن يصلحها؟

الجار: أكيد أن يصلحها..

* المسن: إذاً طبق هذا يا جاري؛ إن الروابط العائلية أعلى من أن تكون حبراً على ورق متى وُقّعت انتهت.. العائلة هي الحياة، هي حيث تنتمي، بدلاً من قطعها قم الآن واجعل من نفسك طبيباً وأصلحها...

الجـار: (وهـو يقـوم مـن كرسـيه) لـن أشـكرك علـى الشـاي، بـل سأشـكرك علـى إنقـاذ عـائلتي مــن التفكــك والضــياع، لوهلــة ظننتــك خرفــاً أيها العجوز الطيب.

المســن: (مبتســماً وهــو يمســك يــد جــاره) اذهــب وأصــلح بيتــك يــا جــاري العزيــز فــلا شيء يستحق الغضب..

ذهـب الجـار وهـو ممسـك بيـد ابنـه إلـى بيتـه وهــو ينظــر إلــى الرجــل المســن بنظــراتِ امتنـان ممتلئـة وجـلاً ووقـاراً لهـذا المسـن الـذي ظنَ للحظة بأنه عجوز خرف....

4-الإهمال الأخلاقي

أكمل الرجل المسن رشفته الأخيرة من كوب الشاي الدافئ ووضعه جانباً، لينهض من كرسيه الخشبي وهو يجر خطاه بصعوبة لما فعله به الزمن، ليشاهد مباراة في ملعب كرة القدم القريب من منزله. كان الجو يسوده الحماس والمواجهة، بينما كان الرجل المسن يراقبهم بابتسامة هادئة ويجر خطاه بوقار متوجهاً نحوهم عابراً للطريق المؤدي إلى الملعب. إذ بكرة قوية موجهة نحو الرجل سددت إليه، فسقط الرجل المسن أرضاً وقد تلطخ وجهه دماً إثر تلك الضربة القوية. توجه ذلك الشاب نحو المسن الذي ينفض ثيابه من التراب ويحاول النهوض، فقام الشاب بحمل الكرة دون أن

يكتـرث أو يوجــه كلمــة اعتـذار لهـذا الرجـل المسن.

المسن: انتظر يا ولدي.

الشاب: (بنبرة حادة) ماذا تريد؟

المسـن: هـل الكـرة بالنسـبة لـك أهـم مـن رجـل مسن متلطخ بدمائه؟

الشــاب: حسـناً، لقـد كـان الأمـر حادثـاً والآن اسـمح لـي فالمبـاراة جاريـة لا وقـت لـدي لهـذه الرسميات، (مديراً ظهره للرجل المسن).

المسن: رسميات؟؟؟؟ استمع إليّ يا بني، قد تفقد المباراة وهي لا تمثل مشكلة كبيرة، ولكن المشكلة في أن يفقد الإنسان قيم وإنسانيته. فيما تسميه أنت رسميات أنا أسميها واجبات؛ إن الاعتذار يا بني فضيلة ورفعة وليس ذلاً وهواناً..

الشاب: (توقف في مكانه) حسناً أيها العجوز، لا داعي لأن تجعل الأمر بهذا الحجم، إنه حادث بسيط وأنت بخير الآن فلا داعي لكل هذا الكلام.

المسن: استمع إليّ يا بني، إن هذا الجرح سيلتئم مع الوقت، أتعرف ما يؤلمني أكثر

مـــن هـــذا الجـــرح؟ تصـــرفك عنـــدما قمـــت بتفضـيل الكـرة علـى رجـل مسـن قـد آذيتـه. أنـا لســتُ بحاجــةٍ إلــى اعتــذارك، لكننــا جميعــاً بحاجـة إلـى الإنسـانية، إلـى الاحتـرام والعطـف الـذي جعلـه الله بنـا. هـذا التصـرف مـن أكبـر مشــاكل هــذا الجيــل، فجــيلكم يواجــه أزمــةً أخلاقيــة مخيفــة. أنــا اليــوم لــم أرَ فيــك إنســاناً، بـل رأيـت فيـك قـيم الغابـة حيـث لا رحمـةَ ولا هـوان لضـعيف مسـن. الاعتـذار يـا بنـي لـيس عيبــاً، بــل العيــب فــي تجاهــل أخطائــك، إن اعتـذارك لـن يمحـي هـذا الموقـف ولـن يـداوي جرحي ولكن على الأقل ستكون إنساناً.

الشـــاب: حســـناً، الآن دعنـــي أكمـــل المبـــاراة واحـتفظ بنصـائحك إلـى قبـرك، مَـن يهـتم لهـذه الترهات التي نطقت بها؟

المســن: أتعــرف؟ لــن أضــيع وقتــي معــك، ففاقــد الإنســانية لا يســتعيدها. إن الأخــلاق يــا بنــي هــي أســاس هـذه الحيـاة وجـوهر الإنسـان الــذي إذا أضـــاعه ضـــاع معـــه، ســـيأتي يـــوم وســـتدرك بأنـــك كســـرت جـــوهر إنســـانيتك وأصبحت وحشاً بليد القيم والمشاعر..

الشــاب: حســناً، فقــط ابتعــد، (مــديراً ظهــره للمسن دون أن يكترث لأي كلمة قالها)...

وقـف المسـن بصـعوبة وخيبـة متوجهـاً إلـى بيتـه متـأملاً مـا حصـل لـه مـع هـذا الشـاب الطـائش. لـم يسـتطع أن يكمـل طريقـه إلـى بيتـه مـن شـدة الخيبـة والتعـب، لـم تعـد قـدماه تحملانـه وهـو يتأمـل فيمـا حـدث لـه اليـوم قـائلاً: أيعقـل هـذا؟ هـل أصـبحت المبـاراة أهـم مـن رجـل عجـوز يعـاني؟ هـل فقـد النـاس إنسـانيتهم؟ المشـكلة أكبـر مـن هـذه بكثيـر، فبصـراحة لقـد شـعرت بـالألم مـن تلـك الكـرة ولكـن مـا يـؤلمني أكثـر هـو وضـع هـذا الجيـل؛ إن الفسـاد الأخلاقـي أصـبح متجـذراً فـي مجتمعنـا بدرجـة مخيفـة حقـاً. اليـوم لـم أرَ إنسـاناً بـل رأيـت ضـميراً ميتـاً تجـاه الإنسـانية. ما سبب هذا الفساد الأخلاقي؟

هل هو غياب دور الأسرة؟

أم غياب القدوة؟

أم الجهل المقمع بالقيم الإنسانية؟

أو قد يكون الثلاثة معاً؟

ما هي طرق علاجه أصلاً؟ هل هي غياب المساءلة أم غياب الإنسانية؟ إني خائفُ حقاً على الأجيال القادمة أن يعيشوا في غابة لا مكان لإنسانيتهم بها، أو لربما على ذلك الشاب أن يخاف على نفسه لأنه لن يبقى شاباً للأبد وسيتذكر كلام هذا العجوز الذي آذاه يوماً. نعم، كما توقعت إنه موسم تداعي القيم....

5- حواجز بناء الطفل

نهـض المسـن وهـو فـي أوج انكسـاره لمـا حـدث لـه متكئـاً علـى عكـازه يحـاول النهـوض ليكمـل مسـيره إلـى بيتـه، فأخـذ يجـر خطـاه نحـو بيتـه ليتفاجـأ بجـاره "أبـو سـالم" حـاملاً سوطه وجالسـاً أمـام بيتـه وقد بـان علـى وجهـه علامـات الغضـب والغبطـة. توجـه المسـن إلـى جاره بعد رؤيتـه لـه فـي هـذا الحـال سـائلاً عـن سبب غضبه وسوطه:

المسن: كيف حالك يا أبا سالم؟

أبو سالم: أهلاً بك يا جاري العزيز، ما هذه الدماء التي على وجهك أيها المسن؟

المسن: لا شيء يدعو للقلق، مجرد حادث بسيط.

أبو سالم: أتمنى لك الشفاء أيها العجوز الطيب.

المسن: أراك غاضباً يا جاري العزيز؟

أبـو سـالم: نعـم، لقـد اتصـل بـي الآن مـدير مدرسـة ابنـي سـالم وقـد رسـب للمـرة الثانيـة، أنا أنتظر قدومه.

المسـن: ومـاذا يفعـل هـذا السـوط بيـدك يـا جاري..

أبـو سـالم: (بنبـرة غضـب) سـألقن هـذا الولـد درساً لن ينساه!

المسـن: (نـاظراً إلـى أبـو سـالم) وهـل قمـت بجلده في المرة الأولى التي رسب بها؟

أبــو ســالم: بالتأكيــد، لكنــه لا يــتعلم مــن أخطائـه، إنـه ولـد مهمـل لا يصـلح لـه إلا الجلـد والعمل الشاق.

المسـن: وهـل سـيغير هـذا السـوط النتيجـة هـذه المرة؟ ألم تجربه في المرة الأولى؟

أبــو ســالم: (بنظــرة خيبــة) لقــد أتعبنــي هــذا الولـد، لا نتيجـة لكـل جهـودي فـي جعلـه إنسـاناً ناجحاً، لكن هذه المرة سأكسر عظامه!

المسـن: (مبتسـماً) برأيـك يـا جـاري العزيـز، هـل الضـرب هـو الـذي يجعـل الإنسـان ناجحـاً، أم الوقوف بجانبه وتشجيعه؟

أبو سالم: (متردداً) لن يجدي هذا معه أنا أعرفه.

المسن: استمع إليّ يا جاري الطيب، لا يمكنك إصلاح شيء بكسره، بدلاً من ضربه علمه النجاح، علمه كيف يكونُ ناجحاً لا بضربه بل بدعمه عند كل فشل. يا جاري العزيز هنالك مثل تعارفنا عليه يقول: "إن الإنسان الممتلئ لا يمكن لأي شيء هزه أو رجه"، ما رأيك بهذا الكلام وأنت الذي تهز وتفرغ ولدك؟

أبو سالم: أنا أضربه لأعلمه وليس لضربه وإفراغه كما تعتقد أيها العجوز، إن تربيتي ناجحة..

المسن: وهل الضرب هو العلاج؟ صدقني أيها الجار الطيب إن الجروح التي سيسببها سوطك على جسد ولدك سالم ستلتئم ولكن أثرها يبقى في قلبه وعقله. بدلاً من جعل نفسك جلاداً ومصدراً للخوف بالنسبة لابنك، اجعل نفسك مصدراً للأمان، مصدراً للدعم. إن السوط الذي تحمله الآن بيدك يا جاري هو أداة تعذيب لا تربية.

أبو سالم: (بخيبة) لقد أنهكني هذا الولد، إنه فاشل لا يمكنني تغييره بأي طريقة، لقد يئست منه ولا علاج له إلا سوطي هذا.

المسـن: (بنظـرة أمـل) أخبرنـي يـا جـاري الطيب، ما هو عملك؟

أبو سالم: أنا سائق شاحنة كما تعلم.

المسن: وماذا عن دراستك؟

أبو سالم: في زمني لم تكن الأمور على ما يرام ولهذا رسبت.

المسـن: وهـل تعتبـر نفسـك فاشـلاً الآن؟ استمع إليّ يا جاري، لا يوجد إنسان فاشل، النـاس يـا جـاري ليسـوا متسـاويين فـي الحظـوظ، ولكـن لكـل مـنهم شـيء يبـدع بـه، ويقـع إبـداع ابنـك فيمـا تزرعـه مـن دعـم لمـا يهوى.

أبـو سـالم: إنـي فـي حيـرة مـن أمـري، كيـف يمكـن التـرميم لهـذا الولـد ليصـبح ناجحـاً؟ أعتقـد أننـي وجـدت الحـل سـأربيه كمـا ربـاني أبي.

المسـن: اسـمع يـا جـاري العزيـز، فـي رحلتـي الأكاديميـة عانيـت الكثيـر مـن المشـاكل والضـغوطات التـي كنـت أتعـرض لهـا مـن والـدي، تسـببت فـي نـزول تقييمـي. لـن أنسـى ذلـك اليـوم الـذي أتيـت بـه راسـباً ومخـذولاً مـن نفسـي حـاملاً معـي قائمـة درجـاتي السـيئة ومتوجهـاً نحـو والـدي الـذي كنـت أتمنـى أن يحتضـنني وقتهـا بـدلاً مـن تكسـير أصـابعي. إن الإنسـان ينمـو إذا قُـدم لـه الـدعم والحـب، عنـدما يشـعر بـالاحتواء فقـط سـيقدم أفضـل مـا

لديه يا جاري العزيز؛ إن الإنسان مشاعر فإذا طابت المشاعر طاب كل شيء.

صمت أبو سالم موجهاً نظره نحو سالم وهو يسير نحو أبيه بخوف وتوتر..

سالم: (وبدأت دموعه تنزل على خديه) أبي أرجوك لا تضربني، أقسم أنني لن أكون فاشلاً وسأنجح في المرة القادمة.

نهض أبو سالم من كرسيه ومتوجهاً نحو ولده، ومنهالاً عليه بالضرب: "سأربيك اليوم، لن تذهب مجدداً للمدرسة، سأجعلك

تعمـل كالحمـار لتـتعلم!" وسـالم يتلـوى بـين يدي من يجب أن يكون مصدر الأمان.

وكـان حادثـاً عاشـه حـدث أمـام عينيـه التـي باتـت عليهـا الحـزن والبكـاء، ناهضـاً مـن مكانه قـائلاً فـي نفسـه: لقـد دمـرت أحـلام ولـدك الصـغير يـا جـاري، لقـد قتلـت طفولتـه، أيعلـم ويربى الإنسان بالقسوة؟

داخلاً إلـى بيتـه بعـد يـوم طويـل ومتعـب، اتجـه نحـو غرفتـه ليـريح نفسـه بعـد يـوم متعـب وشاق....

6- تأملات الرجل المسن

قد كانت من عادة هذا المسن أن يقرأ القرآن قبل نومه، فأخذ يقرأ بكتاب الله حتى وصل إلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد:11]. وقف المسن عند هذه الآية وكأنه يسمعها للمرة الأولى، توقف صوته لكن الآية لم تتوقف في داخله، صدى لسؤال مؤجل طرأ لديه: من أين يجب أن يبدأ التغيير؟

مرت على ذهنه وجوه وأحداث ومواقف صمت فيها الناس لا عجزاً بل خوفاً من كلمة اعتادوا أن يرددوها: "عيب". كم من حق ترك، وكم من خطأ سُكت عنه لأنه على بصيرة بل لأن مواجهته أصبحت

إحراجاً وأصبح الإصلاح يقابل بالاستنكار. عاد يردد الآية وقد ثقل معناها أكثر في قلبه، شعر وكأنها لا تخاطب فرداً واحداً بل تخاطب أمة كاملة. تمتم في نفسه بحزن: إذا كان التغيير يبدأ من الداخل فكيف يتغير مجتمع جعل من العيب حاجزاً بينه وبين الإصلاح؟ رفع رأسه بتأمل السقف وهو مدرك بأن العقدة ليست في قلة عدد من يريد التغيير، بل في كثرة من يخشون نظرة الناس أكثر من بقاء الخطأ، ثم تنفس وأغلق المصحف ببطء وبقيت الآية مفتوحة في داخله بلا جواب. لكن من أين يبدأ التغيير وما الذي يجب علينا تغييره؟ هل قصد الإله الأخلاق أم العطف أم الإنسانية؟ سكت قليلاً

ثـم أضـاف: الحـال التـي نمـر بهـا اليـوم تشـبه إلـى حـد كبيـر أقوامـاً سـبقونا، أقوامـاً كسـروا حـواجز الـدنيا الثلاثـة وهـي: الـدين، القـانون، والسـمعة. هـل تغيرنـا لأننـا أضـعنا مبـادئ ديننـا؟ أم السـبب فـي غيـاب القـانون أو المحاسـبة؟ أم السـبب هـو إهمـال العيـب ومفاهيمـه مـن النفـوس؟ مـن واجـب هـذا الجيـل معرفة السبب الحقيقي.

ناهضـاً مـن مكانـه ومتوجهـاً إلـى السـرير.. لينام مغمض عينيه.

7-الصدق مع النفس

الساعة السابعة صباحاً، استيقظ العجوز وهو في أوج نشاطه لبدء يوم جديد. توجه إلى المطبخ ليعد لنفسه إفطاراً شهياً وكوباً من الشاي، أشعل النار وبدأ يطبخ لنفسه طعاماً، وبعد إتمام تجهيزه توجه إلى الصالة ليجلس هناك ويأكل فطوره، موجهاً نظره إلى التلفاز..... فجأة خبر عاجل.....

بيان من سيادة الرئيس قائلاً: إن الأموال التي دفعتها كمساعدات للدول قد كانت أموالي الخاصة. كان هذا الكلام موجهاً إلى المتظاهرين الذين لم يعجبهم هذا التصرف الذي كان بمثابة رصاصة الرحمة في ضمائرهم حيث أن الشعب يعاني من

ضـعف المعيشـة والاقتصـاد.. أغلـق التلفـاز قـائلاً فـي نفسـه: غريـب أمـر هـؤلاء، يكـذبون علـى الـنفس لكـي يرضـوها؟ الصـدق مـع الـنفس فضـيلة، فمـن يبـرر أخطـاءه لا يصـلحها، لقـد أوهـم نفسـه بـأن أمـوال الدولـة أموالـه بصـفته رئيسـها مبـرراً لنفسـهِ خطيئتـه. إنـه يـرى نفسـه مثاليـاً حتـى وإن كـان لديـه شـعور بالخطـأ، لـذلك يبـدأ يلقـن نفسـه روايـة تجمـل الفعـل الـذي قـام بـه ويعتبـر أن النـاس هـم المخطئـون. يصـل إلـى درجـة يتوقـف عـن إقنـاع نفسـه أنـه قـد أخطـأ، حتـى وإن وجـد أشخاصـاً قليلـين يعارضـونه فلـن يهـتم لأمـرهم وسيعتبرهم أناساً جاهلين،

لكـن؟ سـتكون النهايـة معروفـة وواضـحة فـي كل مرة

وهـي الضـياع. سـتدمر مفاهيمـه ولـن يـدرك الخطـأ مـن الصـواب، سـيركن فقـط لأفعالـه ويبررهـا فقـط لأنـه شـعر بأنهـا صـحيحة سـيعتبرها صـواباً ومـا دونهـا خطـأ، وحتـى الـذين سـاندوه بأخطائـه سيضـيعون معـه باتجـاه دائـرة مظلمـة لا نهايـة لهـا. إن إصـلاح هـذه الأمـور تتطلـب مسـيرة واضـحة، مسـيرة يصـدق بهـا الإنسـان مـع نفسـه وعقلـه، وهـي تختـتم بسـؤال واحـد وهـو: هـل أنـا صـادقُ مـع نفسـي أم أنـي أرتـاح فقـط لمـا أصـدقه وأعتبـره صواباً؟....

8- التنمر

بعد أن أكمل الرجل المسن إفطاره توجه خارجاً من بيته كالعادة، متجهاً هذه المرة نحو ضفاف نهر دجلة متأملاً جماله الخلاب الذي لطالما غازله الشعراء. وفي طريقه صادف المسن رجلاً يبكي على كرسيه المتحرك، قد بان على حاله الخيبة والانكسار. وجه المسن نظره إليه نظرة عطف وانكسار، متوجهاً إليه وناظراً إليه بعين العطف وهو يستفسر عن أمره...

المسن: لماذا تبكي يا بني؟ ما الذي حدث لك؟

الرجل: (مطأطأً رأسه وهو يمسح دموعه) بصراحة يا جدي، لقد قابلتني هنالك مجموعة من الناس وقد وجهوا إليّ نظرات بعين الاحتقار، وقد تعالت أصواتهم بالضحك والاستهزاء على حالتي، لقد كسر تصرفهم شيئاً في صدري.

المسن: (وقد دمعت عيناه) أتعرف يا بني؟ لقد واجهت الكثير من أولئك الأصناف الذين يعانون من الإعاقة العقلية الذين عمى الله بصيرتهم.

الرجل: أي إعاقة يا جدي؟ إنهم لا يعانون من أي إعاقة، لو كانوا معاقين لشعروا بما

أمر به، لشعروا بالخيبة والانكسار الذي في صدري، صدقني لو كانوا معاقين لما تحدثوا كلمةً واحدة.

المسن: يا ولدي، الإعاقة الحقيقية ليست إعاقة الجسد بل هي إعاقة العقل. يا بني، هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم بالتنمر على حالك ما هم إلا حفنة من مرضى العقول، ولسد هذا الفراغ تنمروا.

الرجل: لكن هذا لا ينفي إعاقتي أيها الرجل العجوز.

المسن: ربما أنت محق يا ولدي، لكن أنت لم تختر إعاقتك بينما هم اختاروها، فمن المعاق برأيك؛ الذي عاش ووجدها، أم الذي نماها واختارها؟

الرجل: (بإقناع) الذي نماها واختارها طبعاً.

المسن: يا ولدي، في هذه الحياة ستواجه الكثير من مرضى العقول الذين ماتت ذممهم وهزلت عقولهم، فصدقني حتى وإن لم يكن لديك إعاقة ستتعرض للتنمر، فقلوب المتنمرين يا ولدي لا ترحم، إنهم فيروسات

بشـرية تحـيط بالنــاس لا رجــاء يُرجــى مــنهم ولا الحياء يمنعهم.

الرجـل: هـذا لـن يغيـر الخيبـة والفـراغ الـذي أحدثوه بي.

المسـن: أنـت مـن سـمحت لهـذه الخيبـة بـدخول قلبـك ومكنتهـا مـن جوارحـك يـا بنـي؛ إن أصـل الأشــجار جــذورها فــإذا تــأثر الجــذر ذبــل خضــار الشــجر وثمــره، فـلا تسـمح لمرضــى العقـول يـا ولـدي أن يـؤثروا بـك، لا تجعـل مـن أرادوا انكسارك يروك منكسراً.

الرجل: (مشغلاً كرسيه المتحرك والدموع في خده) أيها المسن، حتى وإن تجاوزت هؤلاء سيتنمر عليّ غيرهم، هذا لا يغير الوضع، استودعتك الله أيها الجد الطيب، ولكنه قدري.

نظر المسن بخيبة إلى ذلك المقعد قائلاً: الأمر فاق كل تصوراتي، أيتظن أولئك المتنمرون بأن كلماتهم كلمات عابرة؟ اليوم قد كسروا نفساً وروحاً، كيف يمكن لبشر اليوم أن يكونوا بهذه القسوة؟ كسر النفوس جريمة، هل أصبح التنمر ديناً يتدين به المرضى؟ كيف يمكن لمجتمع كهذا البقاء؛ مجتمع نكر قيمة الإنسان وسجن إنسانيته وراء قضبان؟ أتأمل هذا مجتمع وأنا في

عمـر الثمـانين، هـل هـذا هـو الـزمن الـذي حدثني عنـه جـدي؛ زمـن تـداعي القـيم حيـث لا قيمـة للإنسـان ولا لمشـاعره، حيـث يفقـد الحيـاء والعفـة، حيـث يفقـد جـوهر الإنسـان وتمحى إنسانيته...

9-هل نحن شركاء في التداعي أم أننا الضحية؟

غادر المسن مكانه متوجهاً إلى النهر ليتفاجأ بانخفاض منسوبه وانكشاف أرضية النهر التي كانت ممتلئة بالأوساخ والخردة. هذا المنظر كان مؤلماً لعين العجوز، نظر العجوز إلى النهر متأملاً إياه لساعات طويلة ليكسر صمته قائلاً...

لا أعلم متى بدأت الأفكار تثقل رأسي، هل منذ أن رأيت الخطأ يتكرر هنا، أم منذ أن أصبحت لا أستغرب عند رؤية الأخطاء؟ دائماً ما يخطر سؤال برأسي: هل نحن شركاء في تداعي تلك القيم أم أننا ضحية؟ كنت أظن دائماً أني ضحية، ربما لأن هذا التفسير كان سهلاً على عقلي، أو ربما لأني

كنت أحاول إقناع نفسي بأني الضحية، ولكن لطالما كنت أفكر ما ذنبي أن أكون تلك الضحية؟ إلى أن توقفت أفكاري فجأة: هل أنا فعلاً ضحية عندما رأيت الخطأ وتجاهلته؟ هل أنا فعلاً ضحية عندما تعودت على رؤية مجتمعي بالأخطاء؟ وهنا شيء ما تغير، لم أعد ضحية كما كنت، اكتشفت أخيراً بأني فعلاً لم أصنع هذا التداعي وتلك القيم التي ولدت بها، ولكن هل حاولت إيقافها يوماً ما؟ أم أنني كنت أكتفي بالمشاهدة؟ أنا من شاركت بذلك الصمت المهيب، ذلك الصمت الذي قيد أفكارنا، ذلك الصمت الذي وضع حدوداً لحريتنا، ذلك الصمت الذي وضع لنا قيماً خاطئة لنعيش عليها. كنت أستطيع أن أقف ضد ذلك ولو بكلمة واحدة، ولكني اخترت

الصمت والمشاهدة وكان الأمر لا يعنيني. غريب كيف للإنسان أن يصبح سيئاً بتلك الطريقة، هو لا يصبح سيئاً مرة واحدة وبموقف واحد وإنما بالتدريج؛ يبرر، فمرة يتجاهل، ومرة يسكت، إلى أن يصبح كائناً مسيراً ليس له إرادة. هل هذا ما حدث لي فعلاً؟ هل أصبحت إنساناً لا أبالي ولا أشعر بثقل ما يحدث؟ لطالما كنت أسأل نفسي ما الذي كان بوسعك أن تفعل؟ ربما لم أكن أستطيع أن أمنع وجودي في هذا المكان ولكن الاستمرار على هذا الحال هو ذنبي، ربما لم أكن قوياً لدرجة أن أغير كل شيء ولكن لم أكن ضعيفاً لدرجة أن لا أفعل شيئاً. وجدت نفسي بين مفترق طريقين: أن أكون الضحية وهذا الأمر الذي لطالما كنت أنظر إليه بأنه عين صدق وحقيقة، أو أن

أكـون شـريكاً وهـذا مـا يثقـل أفكـاري الآن. هـذه هـي الحيـاة دائمـاً مـا تضـعنا بطـرق لا نريـدها ولكـن الاسـتمرار... إنـه ذنبـي، إنـه ذنبنـا جميعـاً، نحـن مـن فضـلنا السـكوت علـى الصـراخ. كـان بإمكاننـا أن نصـرخ بـأعلى مـا نسـتطيع، نصـرخ بأننـا نريـد وطنـاً، لا نريـد أصـنافاً ولا أجناسـاً، نحـن نريـد وطنـاً لا يهـم مـن يعـيش فيـه، يجـب علينـا أن نتقبلـه لأننـا نريـد وطنـاً، لا نريـد ذلـك التـداعي بالـدين والطائفـة، لا نريـد ذلـك التـداعي بالحريـة المشـوهة، لا نريـد ذلـك الفقـر الـذي يعـم أرجـاء وطنـي فقـط لأن مسـؤولاً تهـاون عـن عملـه أو لأن فـرداً ظلمـه، أو لأننـا لا نشـعر بثقـل مـن يتـألم كـل يـوم بـين وطننـا ظـاهري العظمـة وداخلـي الهـوان والضـعف. كنـا نسـتطيع أن نصـرخ بأننـا نريـد وطنـاً حـراً

ومتماسكاً، لا نريد من يخاف من كلام الناس، لا نريد من يؤجل عمله مراراً وتكراراً من غير فكر إن كان سيضر غيره، لا نريد من يتنمر على الآخرين وكأنه خُلق بأعظم ما يمكن، كلنا خلقنا من تراب وكلنا لنا حق في أرض نعيش عليها، وكلنا شركاء في هذا التداعي الكاذب. كل مرة نقنع أنفسنا بأن التغيير مستحيل نحن نضيف شيئاً إلى ذلك التداعي، في كل مرة ربما لم أكن أرى ذلك لكني الآن أشعر بثقله. هل يمكننا التراجع؟ هل يمكن للإنسان أن يستعيد نفسه بعد أن تعود على الصمت؟ لا أعلم لكني أعلم شيئاً واحداً فقط: أن أخطر لحظة ليست حين نُجبر على السقوط بل حين نتوقف عن مقاومة السقوط؛ لذلك ربما لا أستطيع تغيير العالم

وربما لن يتغير شيء كبير بمحاولتي هذه، ولكن على الأقل يمكنني أن أتوقف عن أن أكون جزءاً من هذا الانهيار، يمكنني أن أختار ولو لمرة أن لا أصمت، كلنا يمكننا ذلك. إصلاح هذا التداعي هو مسؤوليتنا، كل صمت منا هو إضافة تعظيم لهذا التداعي، لكننا لن نصمت بعد الآن، سنحاول بأبسط الطرق أو أعقدها، سنحاول وسأحاول لأني أدركت بأني لست ضحية بل أنا شريك بهذا التداعي، فالسكوت على الحق بحد ذاته جريمة، أنا شريك في هذا التداعي ولست مجبراً أن أبقى شريكاً.

١٠- لماذا لا نتغير رغم إدراكنا؟

قام العجوز من مكانه عائداً إلى بيته الذي كان قريباً نسبياً إلى النهر ليتفاجأ بلقاء جميل أعاد له ذكريات الماضي، صديقه "أبو ماجد". ابتسم الرجل المسن متحدثاً لصديقه القديم:

المسن: كيف حالك يا صديقي القديم؟ لقد اشتقت لك.

الصديق: بخير يا صديقي، وأنت كيف حالك؟ لقد كبرت يا صديقي وبان عليك الشيب.

المسـن: هـذه حـال الـدنيا يـا صـديقي، نمـر منهـا طفولـةً ثـم شـباباً ثـم مسـنين، قـد باتـت السنين على وجهك كذلك يا صديقي.

أبـو ماجـد: أجـل، هـذه هـي حـال الـدنيا، (مخرجاً من جيبه كيساً ومستنشقاً إياه).

المسـن: أمـا زلـت تتعـاطى يـا صـديقي؟ لقـد مـر وقـت طويـل، ألا تظـن أنـه حـان الوقـت لتـرك هـذه العـادة المأسـاوية التـي سـلبت منـك عائلتك؟

أبـو ماجـد: لـم يتبـقَ شـيء مـن عمـري لأغيـر لأجلـه، حسـناً لقـد تأقلمـت مـع وضـعي ولا حاجـة للتغييـر، مـا هـي إلا أيـام معـدودة

وسنمضي، وأيضاً لا رغبة لي بأي شيء وأفضل بأن لا نتطرق لهذا الموضوع.

المسن: حسناً يا صديقي، الأمر يعود لك والتغيير خيارك لا خياري، الأمر يتعلق بخوفي على صحتك يا صديقي فهي لها مضار كبيرة.

الصديق: (بضجر) أنا أعرف ضررها لا داعي لذكرها، حسناً نلتقي لاحقاً يا صديقي العزيز.

المسن: استودعتك الله يا صديقي العزيز.

متأملاً بصديقه بنظرة خيبة قائلاً في نفسه:

لماذا نحن ندرك كل شيء ولا نفعل شيئاً؟ وقف عند هذه الفكرة طويلاً وكأنها مرآة لا أستطيع كسرها ولا الهروب منها. أعرف الخطأ حين يقع، بل والأسوأ أنا أدرك نتائجه لكني لا أفعل شيئاً وأكرر وأكرر وأكرر نفسي وفعلي. دائماً ما أقول لنفسي غداً سأفعل، غداً سأغير، غداً لم أصمت، غداً لن يبقى على حاله، وكأن الغد هو مكان يحمل نسخة مني تفعل ما لا أستطيع فعله، لكن هذا هو الغد أتى وها أنا كما كنت؛ نفس البداية، نفس الحوار. هل المشكلة في قدراتي أنا؟ لكن لا أعتقد، فأنا دائماً ما أرى نفسي كما يجب أن أكون وليس ما أنا عليه فعلاً. دائماً ما أشوب أفعالي بتلك الحجج بأني لا أستطيع، لست

قوياً كفاية والوقت ليس مناسباً، ولكن هل هذه الحقيقة فعلاً؟ لا، الحقيقة أنها ستار أخفي خلفه حقيقة لا اريد الاعتراف بها. ربما... أجل أنا أعترف ربما... أنا خائف. لا أخاف من الفشل ولكني أخاف أن أحاول ولا أصل، أخاف من أن أصل ولكني أرى الفشل عند وصولي لأنني أعتقد أن الفشل بعد المحاولة لا يبقي لي أي أعذار، لكن في نفسي حتى هذا العذر أشعر أنه غير كافٍ. هناك أسباب جوهرية، أسباب لا أستطيع أن أعبر عنها، لماذا؟ لأنني جاهل بها، بل لأني لا أعرف شعورها، أنا فقط يتلامس بروحي لمحة منها لكني لا أراها كأنها طيف بعيد حتى عن روحي، شعور لا أستطيع التعبير عنه لكنه حقيقي، شعور لا أستطيع الاعتراف به. نعم أنا بذلك الضعف

إذ لا أســتطيع أن أعتــرف... لا أســتطيع أن أقـف أمـام كـل مظلـوم يشـعر بـالألم وأعتـرف لــه بــأني مــدرك لــذلك الألــم ولكنــي أرفــض التغييـر، لا أرفضـه لأنـي سـعيد بهـذا الألـم، أنـا فقـط لا أريـد أن أُقتلـع مـن محيطـي، أنـا أريـد التغييــر دون ألــم، أريــد التغييــر دون تعــب، أريـد التغييـر دون جهـد. مَـن قـال بـأن التغييـر جميل؟ نعـم إنـه جميـل ولكنـه مـؤلم جـداً، تخيـل بأنـك تهـدم كـل مـا عشـت حياتـك عليـه، كـل تلـك الأسـس التـي لطالمـا كنـت تعـيش بهـا. التغييـر لـيس فكـرة جميلـة بـل هـو اقـتلاع، والاقــتلاع مــؤلم. ألــيس مــا أعيشــه مؤلمــاً أيضـاً؟ أجـل، ولكنـي تعـودت علـى هـذا الألـم، إنـه بطـيء هنـا، يبـرز التنـاقض فـي أفكـاري؛ أنـا لا أهـرب مـن الألـم، أنـا أختـار نوعـه فقـط، أنــا أختــار الألــم الــذي أعرفــه وأفضــله علــى

المجهـول. غريـب كيـف يفضـل الإنسـان ذلـك الانقفـال فقـط لأنـه مـألوف. ومـاذا سـوف أفعـل بهـذا الإدراك؟ هـل أحمـل ثقلـه علـى قلبـي؟ أم أسـتخدمه كبدايـة؟ وهـل أنـا أسـتطيع أن أسـتخدمه كبدايـة؟ أجـل، لطالمـا عرفـت أننـي لسـت عـاجزاً كمـا كنـت أقـول، لكنـي لـم أكـن بتلـك الشـجاعة لأتغيـر، ولكنـي الآن أقـف أمـام نفسـي لا ينقصـني إدراك أكثـر ولا ينقصـني وعـي أكثـر، أنـا فقـط أفتقـد القـرار، هـو قـرار بسـيط: إمـا أن أقتلـع جـذوري وإمـا أن البـديل متـوفر؛ أن أبقـى أدور فـي نفـس الـدائرة. هـو قـرار بسـيط رغـم خـوفي مـن التغييـر، رغـم شـكي لحدوثـه، رغـم احتماليـة فشـلي. (صـمت طويـل... ثـم أضـاف): ربمـا المشـكلة دائمـاً ليسـت أنـي لا أعـرف الطريـق، بـل كنـت

أنتظـر أن يصـبح الطريـق مريحـاً... وهـذا لـن يحدث.

11-الوصية

عـاد المسـن إلـى بيتـه وهـو يفكـر فـي كـل مـا عاشـه، كـل لحظـة وكـل موقـف، وكـأن شـريط حياته يُعـاد أمامـه، كـل لـؤم وكـل أذى، مـع كـل موقـف ينقـبض قلبـه وتـذرف دمعتـاه، ليفـتح بـاب بيتـه متوجهـاً إلـى غرفتـه وقـد مـلأت الدموع عينيه حاملاً ورقته وقلمه ليكتب:

أيعقـل مـا يجـري؟ أيعقـل أننـا تحولنـا إلـى غابـة؛ شـباب تتظـاهر فتُقتـل، وأطفـالُ تُـذبح، ونسـاء يهـرق دمهـن بحجـة العـار؟ عـن أي عـارٍ تتحـدثون؟ أيٌّ مـنهم بؤسـكم أم أخلاقكـم أم أنهـا قـيمكم التـي تـداعت؟ جـدي العزيـز، لا أعلـم متـى ألقـاك ولكـن يـا جـدي تعـال وانظـر

هـذا الـزمن الـذي حـدثتنا عنــه، إنــه زمــن تداعي القيم يا جدي. ها أنا قد بلغت الثمانين مــن عمــري يــا جــدي، قــد أضــاع النــاس إنسـانيتهم وأخلاقهـم وقـيمهم يـا جـدي، إنهـم أقـرب للحيـوان مـن الإنسـان، عقـولُ مشـتتة أكـل الجهـل وعيهـا يـا جـدي. فـي زماننـا أُبـيح كـل شـيء، فقائـل الحـق مقتـول وقائـل الباطـل علـى الأكتـاف محمـول. أنـا هنـا حيـث لا مكـان للقــيم والأخــلاق، حيــث لا مكــان للطفولــةِ والأحــلام، حيــث تُســتعبد النســاء ويُهــان الأيتـام، أنـا هنـا حيـث لا مكـان إلا للباطـل، أنـا هنــا فــي الــذل والهــوان، أنــا هنــا فــي زمــن الخرافــة وزيــغ الأحــلام، أنــا هنــا حيــث ضـاعت كرامـةُ الإنسـان. أعتقـد أننـي عشـت أكثـر ممـا ينبغـي ورأيـت هـذا الـزمن الـذي تحـدثت عنـه يـا جـدي، إنـه أسـوأ ممـا تخيلـت

عندما حدثتني عنه. نظرت إليك باستغراب قائلاً: أيعقل أن نفقد كل شيء؟ قائلاً في نفسي أكيد أنه يبالغ، وكأني أقنع نفسي بأننا لن نصل إلى هذا، قائلاً لازال في الناس خير، مقنعاً نفسي بواقع مرير أنا من زينته بأوهامي. خلقت لنفسي عالماً لا أعيش فيه إلا بأحلامي؛ عالم زائف حيث لا فقير ولا غني، لا طفل يبكي جوعاً، ولا امرأة تصرخ من شدة الضرب، ولا شباباً يُقتلون. عالماً يا جدي كما أراده الله يخلو من الاستبداد، حيث يعيش الإنسان إنساناً، حيث يُحترم كبار السن، حيث لا مكان للطبقية، عالمُ متساوٍ بلا حزن ولا غيبة. أجل يا جدي، هذا عالمي الذي أتمناه ولكن يا جدي تمنيته لثمانين عاماً ولم أجده. أتعرف يا جدي؟ اليوم قُتلت طفلة، أتعرف ما هو

السبب؟ لقد رفضت زواجها من ابن عمها. أتعرف ماذا حدث في اليوم التالي؟ اغتُصبت طفلة من قبل خالها. لو كنت هنا يا جدي لصُدمت، ولكن أنا غير مصدوم فقد تكررت هذه الحالات طوال الثمانين سنة التي عشتها. خذني إليك يا جدي فقد تعبت، تعبت من كل ما يحدث وسيحدث، خذني إليك يا جدي فقد فقدت الأمل الذي دعوت إليه، وفقدت الشغف الذي تحدثت عنه، فقدت كل شيء يا جدي حتى أولادي الثلاثة الذين انحنى ظهري وأنا أربيهم قد قُتلوا دفاعاً عن وطنهم. يقول لي الناس: "نموت نموت ويحيى الوطن"، أي وطن يا جدي الذي يقتل شعبه؟ أي وطن يا جدي الذي يهدم بيوت أهله؟ أي وطن يا جدي الذي يفقد قيمها؟ يا جدي أنا حقاً متعب خذني

إليــك أرجــوك حيــث لا حــزن ولا بــؤس، خـذني إليـك حيـث تعـيش تحـت التـراب يـا جـدي، أريـد أن أرتـاح فـي راحـةِ العـدم حيـث لا مكــان للظلــم والضــغينة والحســد والغيبــة. هنالـك يـا جـدي إلـى جانـب الرفيـق الأعلـى، هنالـك حيـث ننتمـي جميعـاً ليقاضـي الله بيننـا، بـين مصـلح ومخـرب، ليحاسـب كـل قاتـل علـى قتلـه وكـل ظـالم علـى ظلمـه فمـا لحياتنـا مـن معنـى ومـا لوجودنـا مـن رحمـة. خـذني إليـك يـا الله وألحقنـي بعبـادك الصـالحين الـذين صـنع كـل شـخص منهم قيمـة لنفسـه والله بـل وحتـى لشـعبه. لا مكـان لـي مـع الجبنـاء الـذين تقبلـوا الـذل والهـوان، الـذين ارتضـوا بالفسـاد وسـوء الـبلاد والعبـاد. إلـى الجيـل القـادم: أنـا متأكـد بأنــه ســيأتي يــوم مــن الأيــام ستكتشــفون بأنفسـكم وتصـنعون الحلـول، أنـا واثـق بـأن

هـذا الجيـل سـينهض ليثـور علـى الظـلام الـذين ظلمـــوهم والتغييـــر يبـــدأ منـــك يـــا قـــارئ وصيتي. لا يـا أبنـائي، الحـق جماعـة ولـو كـان وحـده، والظلـم قلـة ولـو كـان متبعـوه كثـرة. أودعكم سلامي ..

سـقط القلـم مـن يـد المسـن وترنحـت يـده إلـى الأرض وهو جالس ..... لقد مات المسن.

هـدوء عـم الغرفـة، نعـم مـات المسـن وماتـت ضـحكاته وسـعيه نحـو التغييـر، لكنـه تـرك لنـا هـذه الوصـية التـي ربمـا عبـر عـن كـل مـا فـي صـدره مـن خلالهـا. هـل سـنحقق مـا نحلـم بـه وحلـم بـه الرجـل العجـوز؟ العـالم الـذي تخيلـه وحلـم أن يعـيش بـه كمـا هـو حلمنـا اليـوم، هـل سـننهض بجيلنـا نحـو هـذا العـالم أم سـنبقى

عبيـداً لسـوط الظلـم؟ متـى سـنقف علـى أفـق وطـن نحـن مـن صـنعناه وشـعب نحـن مـن ربينـاه حيـث يُحتـرم فيـه الإنسـان مهمـا كـان معتقـده؟ لـنحلم.. بشـيء واحـد فقـط، لـنحلم بوطن حر وشعب سعيد 💔

أعتقد أنها النهاية

مات المسن فهل ستموت أحلامه؟

هل سيُخلق العالم الذي تمناه؟

هل سيتوقف الظلم؟

هذه المرة الإجابة لك أيها القارئ.

النـهايـة